حديث الوادي

فكاهة..

كان الناس محتاجين إليها في هذه الأيام، التي قلت فيها الفكاهات، لأن الناس يأبون إلا أن يتكلفوا الجد حين يقولون، وحين يعملون، بل هم يأبون مع الأسف الشديد، إلا أن يخدعوا أنفسهم فينخدعوا ويتكلفوا الجد حين يفكرون.

وكان المعقول أن يقسم الناس حياتهم العاملة تقسيماً معتدلاً، بين الجد والهزل، فمن الحق أن الإغراق في الهزل مميت للقلوب، ولكن من الحق أيضاً أن الإغراق في الجد، منهك للقوى، مثبط للهمم، مزهد في الحياة ولا سيما حين تكون الحياة الاجتماعية والعقلية، والسياسية فارغة إلى حد بعيد كحياة المصريين في هذا العهد السعيد. فالحياة الفارغة لا تستحق الجد لأنها حينئذ تكون، أشبه بالرحى التي تدور وتدور، وتقعقع وتقعقع، ثم لا تنتج شيئاً ولا تعطي طحناً.

ولكن المصريين على هذا كله ما زالوا يجدون إذا قالوا ويجدون إذا عملوا ويجدون إذا فكروا، لا يفترون عن الجد، وإن لم ينتج لهم شيئاً ولا يزهدون في الجد، وإن لم ينته بهم إلى شيء.

هم يظنون أنهم يعيشون الآن كما كانوا يعيشون من قبل في بلد ينتج فيه العمل ويفيد فيه الجد، ويجب على الناس فيه ألا يتخذوا الحياة العامة لهواً وهزءاً. ومع أن الظروف تقيم لهم في كل يوم أوضح الأدلة وأسطع البراهين، على أنهم يحلمون وعلى أن أيام

الجد قد مضت وانقضت، ولم يأذن الله لها بعد في أن تعود، مع هذا كله فهم يأبون أن يعبثوا ويأبون أن يتفكهوا، وينظرون إلى الحياة نظراً فيه كثير من التشاؤم وقليل من التفاؤل، وفيه حزن كثير لما صارت إليه أمورهم، وهم كثير لما فسد من أحوالهم.

لهذا كله يجب أن تحمد الفكاهة إذا جاءت للمصريين عفواً دون أن يطلبوها أو يسعوا إليها. فهي حينئذ تكون أشبه شيء بالنسيم الخفيف الحلو الذي يهب فجأة أثناء الحر الثقيل المحرق، وأشبه شيء بقطرات الغيث تسقط فجأة على أرض قد أحرقها القيظ وبعد عهدها بالماء، وأشبه شيء بالخبر السار يبلغك فجأة بعد أن اصطلحت عليك الأخبار المحزنة المقلقة، وأشبه شيء بالحلم اللذيذ يزورك في ليلة طويلة وثقيلة قد سلطت عليك نوماً عميقاً ثقيلاً كثرت فيه الأحلام المروعة التي تضطرب من هولها القلوب والنفوس.

لست أخفي عليك أني وجدت لهذه الفكاهة شيئاً يشبه كل هذه الصور التي عرضتها عليك آنفاً، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أنك لم تعرف بعد هذه الفكاهة التي أريد أن أحدثك عنها وأريد أن ألفتك إليها، لتذوقها كما ينبغي ولتنعم بها كما ينبغي ولتنصرف إليها لحظة عما يكتنفك من جد الأمر، وعن هذه الإشاعات التي لا تحصى، والأنباء التي لا تنقضي، والفروض التي لا تنتهي، وكل هذا الهم الثقيل، الذي يملأ أحاديث المصريين وقلوبهم ورؤوسهم في هذه الأيام التي اضطرب فيها كل شيء، وخفي فيها على الناس كل شيء وترك فيها للناس أن يفهموا إن

استطاعوا الفهم وأن يفسروا إن استطاعوا التفسير، وأن يتنبأوا إن استطاعوا التنبؤ بما سيكون.
أنت من غير شك لم تفطن لهذه الفكاهة، وقد ذهبت بك الظنون إلى فكاهات كثيرة، ولعلك فكرت في هذه الولائم التي تقام للوزراء، أو يقيمها الوزراء لأنفسهم، أو يقيمها نائب المندوب السامي فيدعو إلى بعضها وزراء لا يشاركهم أحد من غير طبقتهم، ويدعو إلى بعضها الآخر وزراء يشاركهم الموظفون والصحفيون، ولعلك فكرت في فكاهات وزير ماليتنا العظيم، وما نثيره من خلاف بينه وبين رئيس وزرائنا الرجل الطيب، ولعلك فكرت في العيسويات، وما أكثرها وما أكثر ما خفي منها، ولعلك فكرت فيما سيلقى غداً من الخطب في هذا الاجتماع الخطير الذي سيعقده حزب الاتحاد.
ولعلك فكرت في غير هذا من هذه الفكاهات الكثيرة التي تتصل بالوزارة وحياتها، ولكني لم أقصد إلى شيء من هذه الفكاهات، لأني أردت أن أصرفك عن الجد، وحياة وزارتنا وما يتصل بها جد كلها، لا يمكن أن يبلغها الهزل، ولا أن ترقى إليها الفكاهات إنما أفكر في هذا الأستاذ المحامي الذي أنفق من عمره أعواماً وهو يعتقد فيما بينه وبين نفسه أنه أحق الناس برئاسة الوزارة، وأقدر الناس على تصريف الأمور، وكان هذا الأستاذ في أكبر الظن قد أنكر من أعمال بعض الوزارات شيئاً أو أشياء. وفكر في أن الأمر لو كان إليه لذهب في تدبير شؤون الدولة مذهباً آخر، ثم اتصل تفكيره في ذلك وألح عليه فما هي إلا أن اعتقد أن رئاسة الوزراء يجب أن تسند إليه، ثم اتصل تفكيره في ذلك وطال

اتصاله فما هي إلا أن اعتقد أن رئاسة الوزراء قد أسندت إليه، ثم انتظر أن تصل إليه الآيات التي تدل على أنه قد أصبح رئيساً للوزراء، وطال انتظاره. ثم لم يتردد لأنه رجل مخلص في أن يضع الخطط والمناهج ويهيئ اللوائح والقوانين، ويعد الأوامر والنواهي حتى إذا انتهى إليه المرسوم بإسناد الرئاسة إليه لم يؤخذ على غرة، وإنما كان قد استعد للأمر. ثم يقبل على العمل، فما هي إلا أن يظهر ما كان قد جهز وأعد، وإذا الأمور كلها قد تغيرت، وإذا النظام كله قد استحال، وإذا حياة المصريين قد انتقلت من طور إلى طور.

ثم اتصل تفكير الرجل في الوزارة واستعداده لها، وانتظاره إياها، حتى ظن آخر الأمر أنه قد أصبح وزيراً بالفعل، وأن استعداده للحكم تصريف لأمور الحكم، وأن انتظاره للوزارة نهوض بأعباء الوزارة. ولكنه كان يحس أن شيئين ينقصانه وهما مرتب رئيس الوزراء، والمرسوم الذي يعترف برئاسته للوزراء، ثم هتف به هاتف في ساعة من ساعات الليل أو في ساعة من ساعات النهار، بأن المرسوم قد صدر وبأن قبض المرتب قد آن أوانه، فلم يشك في أن أول ما يجب عليه إنما هو أن يرفع الشكر إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ويتلقى أوامره السامية ونصائحه الغالية فيما يتصل بشؤون الدولة. فذهب إلى قصر رأس التين وهناك لقيته الحياة بوجهها الجاد المستيقظ الذي لا يبيح للناس حلماً ولا فكاهة ولا خيالاً، وإنما يأخذهم بالجد، وبالجد المر الدقيق، وهنالك كانت الإحالة على النيابة ثم البدء في التحقيق، ثم الطبيب

الشرعي، ثم إثبات المرض العقلي، ثم الإرسال إلى مستشفى المجاذيب.
ومع ذلك فما أكثر الذين يشبهون هذا الرجل ويحدثون أنفسهم بمثل ما حدث به نفسه، ويؤمنون بأنهم أحق الناس برئاسة الوزارة وينتظرون أن تسند إليهم رئاسة الوزارة ويسعون في ذلك ألواناً من السعي، ولكنهم لا يرسلون إلى النيابة، ولا يؤخذ معهم في التحقيق ولا يكرهون على مستشفى المجاذيب لأنهم لم يذهبوا إلى مكان رسمي كالقصر أو كديوان الرئاسة. فلهم أن يتحدثوا إذن بما يشاؤون إلى أنفسهم وإلى الناس. ألست توافقني على أن هذه الفكاهة تستحيل كغيرها من فكاهات المصريين كلها إلى الجد، وإلى الجد المر المؤلم؟
ألست توافقني على أن هذا الوزير الوهمي أو المزيف ليس وحيداً ولا نادراً في مصر، وأن من الممكن أن يخلي بينه وبين حريته، إذا أمن شره على الأبرياء أو أن يرسل معه كثيرون جداً من أمثاله، الذين لم يذهبوا كما ذهب إلى القصر، أو إلى رئاسة الوزراء؟..
طه حسين
الوادي، ٢٨ سبتمبر ١٩٣٤.